النقد الثقافي
في شعر معروف الرصافي

Cultural criticism in the poetry of Maarouf Al-Rusafi

م. د.سهام حسن خضر
Dr. Siham Hassan Khudr
الجامعة المستنصرية
Al-Mustansiriya University

ملخص البحث

النقد الثقافي من الظواهر الأدبية التي اتَّسم بها الأدبُ العربي الحديث؛ إذ اقترن ظهورُهُ بالنهضة الأدبية الحديثة، وتبوَّأ مساحةً واسعةً في الشعر العربي الحديث.

وأهمُّ ما يميزُ هذا الضرب من الشعر هو روح المعاصرة، إذ أخذ يعبِّرُ عن معاناة الناس، وهمومها بعد ما كان الشعر قبل ذلك أسير الماضي، والتقليد الذي يجعله لا يمتُّ بصلةٍ إلى عصره.

يهم النقد الثقافي الإبانة عن الإيجابيات أو كشف السلبيات لذاتها، بل يستثمر ذلك فيما يليه من اعتبارات تتعلق برؤية الإنسان ومعه الثقافة لتلك الإيجابيات أو السلبيات ومعيار تصنيفها في هذا المعيار أو تلك. ولهذا فإنه يسعى إلى عرض الإمكانيات المتاحة، والكشف عن الحدود التي تنتج المعاني أو تستقبل الدلالات للممارسات في السياقات الثقافية.

Abstract:

Cultural criticism is one of the literary phenomena that characterized modern Arab literature, as its appearance was coupled with modern literary renaissance, and it occupies a wide area in modern Arab poetry.

The most important thing that distinguishes this kind of poetry is the spirit of modernity, as it expresses the suffering of people, its concerns after what was previously poetry captive to the past, and the tradition that makes it unrelated to its era.

Cultural criticism is important for expressing the positives or exposing the negatives for themselves. Rather, it invests in the following considerations related to the vision of man and with him the culture of those positives or negatives and the criterion for classifying them in this or that box. For this he seeks to present the possibilities available, and to discover the boundaries that produce meanings or receive connotations for practices in cultural contexts.

The interest of cultural criticism is highlighted through the study procedures in which it uses methods of induction, analysis and interpretation. It is worth noting that the field of cultural criticism intersects with the so-called cultural studies that include the study of elite, folk and subcultural

cultures, ideologies, literature, and science of science, social movements, daily life, the media, and philosophical and social theories and the like. And take all of that tools for analysis and interpretation without the domination of one of the rest of them, or the deliberate exclusion of some of them.

* * *

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة، والسلام على سيد المرسلين أبي القاسم محمد، وآله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغرّ الميامين ومن تبعهم بإحسان على يوم الدين.

أما بعد؛ فقد عُدَّ النقد الثقافي من الظواهر الأدبية التي اتَّسم بها الأدبُ العربي الحديث؛ إذ اقترن ظهورُهُ بالنهضة الأدبية الحديثة، وتبوَّأ مساحةً واسعةً في الشعر العربي الحديث.

إنَّ أهمَّ ما يميزُ هذا الضرب من الشعر هو روح المعاصرة، إذ أخذ يعبّرُ عن معاناة الناس، وهمومها بعد ما كان الشعر قبل ذلك أسير الماضي، والتقليد الذي يجعله لا يمتُّ بصلةٍ إلى عصره، ويعنى النقد الثقافي الإبانة عن الإيجابيات أو كشف السلبيات لذاتها، بل يستثمر ذلك فيما يليه من اعتبارات تتعلق برؤية الإنسان ومعه الثقافة لتلك الإيجابيات أو السلبيات ومعيار تصنيفها في هذه الخانة أو تلك. ولهذا فإنه يسعى إلى عرض الإمكانيات المتاحة، والكشف عن الحدود التي تنتج المعاني أو تستقبل الدلالات للممارسات في السياقات الثقافية.

ويبرز اهتمام النقد الثقافي من خلال إجراءات الدراسة التي يستخدم فيها مناهج الاستقراء والتحليل والتفسير. جدير بالذكر أن مجال النقد الثقافي يتقاطع مع ما يسمي بالدراسات الثقافية التي تشمل دراسة الثقافات النخبوية والشعبية والفرعية والأيديولوجيات والأدب وعلم العلامات، والحركات الاجتماعية، والحياة اليومية، ووسائل الإعلام، والنظريات الفلسفية والاجتماعية ونحوها. ويتخذ من كل ذلك أدوات للتحليل والتفسير دون هيمنة لإحداها على سائرها، أو استبعاد متعمد لبعضها.

فلا يمارس النقد الثقافي عمله وكأنه خطاب متخصص مثل الخطاب الفلسفي أو السياسي أو الاقتصادي وغيره ذلك، الذي يتناول الواقع القائم بمنظور ذلك الخطاب وأدواته، فلا يمكن التسليم بوجود واقع خارج الممارسات المولدة للمعنى، وهي جميعًا وسائط ثقافية.

جاء البحث بمبحثين يسبقهما تمهيد بيّنت فيه نبذة عن حياة الشاعر معروف عبد الغني الرصافي، أما المبحث الأول فقد خصصته للثقافة والنقد الثقافي ومفهومهما، وجعلت المبحث الثاني: مخصصاً لشعر الرصافي في إطار النقد الثقافي، ثم ختمت البحث بأهم ما توصّل إليه البحث من نتائج.

على الرغم من أنّ دراستنا المتخذة من النقد الثقافي في شعر معروف الرصافيّ مدارا لها؛ لكنها لا تدعي الريادة والفرادة في هذا المضمار، وإنما حاولت الإفادة من الدراسات القليلة السابقة، التي لم تنهج ما حاولنا انتهاجه في هذه الدراسة التي حاولت بشكل رئيس الاهتمام بالجانب المنهجي وبالمنهجيات الحديثة

التي تناولت شعر الرصافي.

ومما لا شك فيه أنّ الباحثة قد أفادت من أكثر الدراسات النقدية سواءً أكانت قديمة أم حديثة، هذا فضلا عن الدراسات التي اختصت بالرصافي – قيد الدراسة – فهي المادة الأساس وبؤرة الانطلاق.

* * *

التمهيد

الشاعر معروف الرصافي في سطور

- **اسمه ونسبه:**

معروف الرصافي (١٨٧٥-١٩٤٥) شاعر عراقي اسمه الكامل معروف عبد الغني محمود الجباري ولد ونشأ في بغداد عمل في حقل التعليم وله عدة اصدارات شعرية، بني لهُ في بغداد تمثال لتمجيد ذكراه يقع في الساحة المقابلة لجسر الشهداء عند التقاطع مع شارع الرشيد المشهور قرب سوق السراي والمدرسة المستنصرية الأثرية[١].

- **ولادته ونشأته:**

ولد في بغداد عام ١٨٧٥م، ونشأ فيها حيث أكمل دراسته في الكتاتيب، ثم دخل المدرسة العسكرية الابتدائية فتركها، وأنتقل إلى الدراسة في المدارس الدينية ودرس على علماء بغداد الأعلام كالشيخ عبد الوهاب النائب، والشيخ قاسم القيسي، والشيخ قاسم البياتي، والشيخ عباس حلمي القصاب، ثم إتصل بالشيخ العلامة محمود شكري الألوسي ولازمهُ اثنتي عشرة سنة، وتخرج على يده وكان يرتدي العمامة وزي العلماء وسماهُ شيخهُ الألوسي (معروف الرصافي) ليكون في الصلاح والشهرة والسمعة الحسنة، مقابلاً لمعروف الكرخي. وعين الرصافي معلماً في مدرسة الراشدية التي أنشأها الشيخ عبد الوهاب النائب، شمال الأعظمية، ثم نقل مدرساً للأدب العربي في الإعدادية ببغداد، أيام الوالي نامق باشا الصغير عام ١٩٠٢م، وظل فيها إلى إعلان الدستور عام ١٩٠٨م، ثم سافر إلى اسطنبول فلم يلحظ برعاية، ثم عين مدرساً لمادة اللغة العربية في الكلية الشاهانية ومحرراً لجريدة سبيل الرشاد عام ١٩٠٩م، وأنتخب عضواً في مجلس المبعوثان عام ١٩١٢م، وأعيد انتخابه عام ١٩١٤م[٢]، وعين مدرساً في دار المعلمين في القدس عام ١٩٢٠م، وعاد إلى بغداد عام ١٩٢١م. ثم سافر إلى الإستانة عام ١٩٢٢م، وعاد إلى بغداد عام ١٩٢٣م، وأصدر فيها جريدة الأمل، وأنتخب عضواً في مجمع اللغة العربية في دمشق، عام ١٩٢٣م، وبعد ذلك عين مفتشاً في مديرية المعارف ببغداد عام ١٩٢٤م، ثم عين أستاذاً في اللغة العربية بدار المعلمين العالية عام ١٩٢٧م. ولقد بني لهُ تمجيداً

(١) محمد أمين زكي، مشاهير الكرد وكردستان، بغداد، مطبعة التفيض الأهلية ١٣٦٤ه/١٩٤٥م، ص ١٩٦ – ٢٠٠

(٢) إبراهيم عبد الغني الدروبي، البغداديون أخبارهم ومجالسهم، مطبعة الرابطة – بغداد ١٩٥٨م – ص (١٠٣ – ١٠٥) – مجلس معروف الرصافي.

لذكراه تمثالاً في الساحة المقابلة لجسر الشهداء عند التقاطع مع شارع الرشيد المشهور قرب سوق السراي والمدرسة المستنصرية الأثرية.

- **قصائد الرصافي:**

امتاز أسلوب الرصافي بمتانة لغته ورصانة أسلوبه، وله آثار كثيرة في النثر والشعر واللغة والآداب أشهرها ديوانه «ديوان الرصافي» حيث رتب إلى أحد عشر باباً في الكون والدين والاجتماع والفلسفة والوصف والحرب والرثاء والتاريخ والسياسة وعالم المرأة والمقطعات الشعرية الجميلة.

قال في وصفه عظمة الله[1]:

انظر لتلك الشجرة ذات العيون النظرة
كيف نمت من حبه وكيف صارت شجرة
فابحث وقل من ذا الذي يخرج منها الثمرة

- **في الولادة والنشأة**

استأثرت حياة الشاعر العراقي معروف الرصافي باهتمام الباحثين والدارسين ولم يتركوا شاردة ولا واردة إلا أحصوها، ويأتي ذلك بسبب الحياة الطويلة العريضة التي عاشها الشاعر بانفلات واضح في السلوك والتصرف وغشيان الكثير من المحظورات[2]، وقد أهتم الباحث العراقي الدكتور يوسف عز الدين ببعض أحاديث الرصافي وحققها ونشرها عام ٢٠٠٤م، والأحاديث المنشورة في الكتاب الذي عنونه

الدكتور يوسف ب»الرصافي يروي سيرة حياته»، سجل للحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية بكل جراءة وصراحة، والصادر عن دار «المدى» يتوزع على ثلاثة أبواب:

الباب الأول: الأحاديث التي أدلى بها الرصافي لصديقه حاكم محكمة الصلح في الفلوجة المرحوم خالد محمد حافظ[3].

الباب الثاني: أحاديثه يوم غادر الفلوجة إلى محلة السفينة بالأعظمية والمدونة من الأستاذ خالد كذلك، وقد سبق للأستاذ المحقق المدقق عبد الحميد الرشودي أن نشرها في جريدة «الاتحاد» الأسبوعية الصادرة عن اتحاد الصناعات العراقي خريف عام ١٩٨٩م.

---

(١) ويكون التجاوز، محمد الجزائري منشورات وزارة الأعلام- بغداد- مطبعة الشعب ١٩٧٤، ص٦٥.

(٢) الرصافي، رائد الشعر الحديث، عبد الجبار داود البصري، - وزارة الثقافة و الإرشاد العراقية- بغداد - ١٩٦٦، ص٨٧.

(٣) أحمد نصيف الجزائري،في الرؤية الشعرية المعاصرة، منشورات وزارة الأعلام، بغداد،دون تاريخ، ص٥٥.

الباب الثالث: أحاديث الرصافي التي أدلى بها للوجيه البغدادي الأستاذ كامل الجادرجي صيف عام ١٩٤٤م، وقد نشرها الأستاذ كامل في العدد الأول من مجلة «الثقافة الجديدة» الصادرة في شهر نيسان من عام ١٩٥٤م[١].

كان الرصافي قد أرتحل من بغداد من الدار التي ما زالت قائمة في سوق الهرج وفي الزقاق المؤدي من السوق إلى بناية الثانوية المركزية، ارتحل عام ١٩٣٣ إلى مدينة الفلوجة ونزل في ضيافة آل عريم الكرام، الذين أنزلوه أحد منازهم المطلة على نهر الفرات قريباً من الجسر الذي كان قد ابتني حديثاً والشبيه بجسر الصرافية في بغداد، ارتحل إلى هناك بعد أن سئم الحياة في بغداد، ولغرض التفرغ للمطالعة والكتابة فكان يمضي مدة الصباح حتى الظهر بالكتابة لكنه على الرغم من السنوات الطوال وحتى مغادرته الفلوجة أبان أحداث ثورة مايس١٩٤١م، ونشوب الحرب بين الجيش العراقي والقوات البريطانية لم يكمل تأليف كتابه (الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس)، والذي ظل مخطوطاً طيلة هذه السنوات ومنه نسخة لدى الأستاذ كامل الجادرجي وأخرى لدى الأستاذ طه الراوي وثالثة في المجمع العلمي العراقي وكان والد الراوي قد أستنسخ نسخة له عام ١٩٤٩م، وقد نشر الكتاب في مدينة كولون عام ٢٠٠٢م، بدار الجمل التي يديرها الشاعر العراقي خالد جابر المعالي وهو معروض الآن في سوق الكتب (وقع هذا الكتاب في يدي ووجدت فيه تجريح بشخصيه الرسول صلى عليه وسلم بشكل أشبه بكتاب آيات شيطانيه لسلمان رشدي من حيث التجريح لمجرد التجريح مع فارق معرفه الرصافي بالسيرة النبوية مما يجعله يورد بعض الحقائق ووضعها خارج سياقها فمثلا يستشهد بفتح الرسول ﷺ للباب أثناء صلاته النافلة على تناقض بين ما يدعو الآخرين له من الحضور في الصلاة وبين ما يمارس) ليلاً ينعقد مجلس الشراب اليومي الذي يحضره عدد من أصدقائه منهم حاكم محكمة الصلح في الفلوجة خالد محمد حافظ حتى إذا انفض السامر ولعبت الخمرة بالرصافي كل ملعب جلسا ليتحدث ويسمر وقد وجد خالد أن أحاديث الرصافي هذه قمينة بالتسجيل والتدوين فإنه بدأ بتدوين الأحاديث حالما يعود إلى داره خشية اللبس وضياعها من الذاكرة لا بل كان يستزيده ويستوضحه عن أشياء محددة وحوادث مهمة وبعضها شخصي، كان الرصافي يتحدث على سجيته وحينما يكون في أوج تدفقه وتألقه وأخذ الخمر منه كل مأخذ وأزال عن طريقه كل المحظورات والممنوعات وأوغل في التنقيب عن الأسرار وتعرية الذات والآخرين و إذا كان أبو نواس قد أوقفها عند موطن الأسرار فإن الرصافي لم يوقفها، ترك نفسه تأخذ حريتها كاملة وكأنه يتحدث إلى نفسه[٢].

---

(١) السماح عبد الله – مختارات من شعر الرصافي – مكتبة الأسرة – القاهرة، ٢٠٠٥، ص١٦٥.

(٢) الرصافي، رائد الشعر الحديث، مصدر سابق، ص٢١.

هذا الأمر يذكرني بالرسائل الشخصية التي يتبادلها الأدباء والشخصيات العامة، إنهم يتحدثون بصراحة كما لو كانوا يتحدثون مع أنفسهم لأنهم ما كانوا يحسبون أنها ستقع في يد من ينشرها على الملأ لاحقاً فنجد فيها العجب العجاب من الضعف الإنساني وفي الذاكرة الرسائل المتبادلة بين غسان كنفاني وغادة السمان تخطى المحظور والممنوع أرى لو أن خالد محمد حافظ أخبر الرصافي بأنّه يدون أحاديثه إليه وأنه قد ينتظر فرصة سانحة لنشرها لما كان الرصافي قد تخطى المحظور والممنوع.

وما يؤكد قولي قوله: «كان الأستاذ الرصافي عندما يخلو بنا المجلس ويتشعب الحديث صريحاً إلى أبعد حدود الصراحة، يذكر الحوادث مفصلة على علاتها وحقيقتها المجردة بلا مواربة ولا تورية فانتهزت مثل هذه المناسبات للحصول على ضالتي المنشودة، وصرت أجمع منها عن الرصافي ومن أقواله كل ما أريد وأتوق إليه ولهذا كنت عندما يجمعني مجلس منفرد أو عام به يستطرد الحديث إلى ما فيه ذكر أو خبر تعلق به وبزمانه أنتبه للحديث وعند رجوعي للبيت أبادر بتدوينه كما حفظته من الذاكرة وكنت في سياق الحديث أستوضح عن عدد من النقاط وأسجلها»[1] في أحاديث الرصافي المنشورة في هذا الكتاب اختلاف واضطراب وخاصة ما يتعلق بزواجه من المرأة التركية المسماة «فاطمة» يوم ذهب إلى الأستانة عام ١٩١٢م، نائباً عن المنتفك في مجلس المبعوثان التركي «النواب» الذي أنشئ بعد الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٨م، وعزله والمناداة بالسلطان عبد المجيد بدلاً عنه ومن ثم إعلان الدستور «المشروطية» إذ لم تخلف هذه المرأة بحجة كونها ضعيفة البنية، إذ يقول: «وكانت زوجتي فاطمة نحيفة للغاية ولهذا كانت أحوالها الصحية لا تساعدها على الولادة فإنها حملت مرة واحدة وأجهضت ابناً وأشار الطبيب عليها بعد ذلك بعدم الحمل وإلا فقدت حياتها وأعطيت الأدوية اللازمة، وقد جاء إرشاد الطبيب في مصلحتي لأني لم أكن راغباً في الأولاد وبقيت في معاشرة زوجتي فاطمة المذكورة والسكن معها في بيت واحد المدة التي قضيتها في الأستانة وحتى تركي الأستانة بعد الهدنة»[2].

ترى لماذا لم يعد إليها، بل له أن يصطحبها معه؟ أليست زوجته؟ أهي متاع فيتركها هناك؟، وقد عاشرها سنوات وسنوات؟ ولنسمعه يتحدث عن طلاقها منه بكل برودة أعصاب وكأنه ترك نفاية «انقطع الاتصال بيني وبين زوجتي فاطمة وحسبما علمت بعد ذلك أن زوجتي أقامت الدعوى تطلب الفرقة لغيابي غيبة منقطعة وهي أربع سنوات فحكم (....) المذكور بالفرقة وهذا كل ما علمته عنها فيما بعد»[3]، إذ هناك من يقول أنه لم يتزوج من البكر «فاطمة» بل تزوج ثيباً اسمها «بلقيس» وإذ اضطربت الروايات وتناقضت في مسألة

(١) الدروبي مصدر سابق، ص٢١٢.
(٢) الرصافي، رائد الشعر، ص٢٤
(٣) الرصافي، رائد الشعر، ص٧٠

لا تحتاج إلى تناقض فأرى أنه لم يتزوج وهذه من مبتدعاته واخيلته وعدم الاهتمام البادي في حديثه عنها و تكاد تنسحب على قصة لقائه بالملك فيصل الأول وأنه غادر المجلس مع عدم صدور ما يستوجب زعله من الملك فيصل الأول إذ كان قال ضد الملك وبلاطه شعراً فأرسل عليه الملك جليل الشأن ليستوضحه ويعاتبه وبدل أن يعتذر عن قولته الفاحشة ترك المجلس مغاضباً وإعلانه في أحاديثه للحاكم خالد محمد الحافظ أنه ترك المجلس لا يزيد في شأنه بل يزيد من شأن الملك واسع الصدر[١].

- **وفاته:**

توفي الرصافي بدارهِ في محلة السفينة في الأعظمية ليلة الجمعة في ربيع الثاني عام١٣٦٤ه/١٦ مارس ١٩٤٥م، وشيع بموكب مهيب سار فيهِ الأدباء والأعيان ورجال الصحافة ودفن في مقبرة الخيزران، وصلى على جنازتهِ الشيخ حمدي الأعظمي، وشهد الصلاة عليه الشاعر وليد الأعظمي، ولقد قالوا في تأبينهِ قصائد كثيرة[٢].

* * *

(١) الرصافي، رائد الشعر، ص٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٦.

المبحث الأول

الثقافة والنقد الثقافي ومفهومهما

من المعلوم أن مصطلح الثقافة عام وعائم وفضفاض في دلالاته اللغوية والاصطلاحية، ويختلف من حقل معرفي إلى آخر، وهو من المفاهيم الغامضة في الثقافتين: الغربية والعربية على حد سواء. فالثقافة بطابعها المعنوي والروحاني تختلف مدلولاتها من البنيوية إلى الأنثروبولوجيا وما بعد البنيوية. وتندرج الثقافة مجاليا ضمن الحضارة التي تنقسم إلى شقين: **الشق المادي والتقني**، ويسمى بالتكنولوجيا (Technologie)، **والشق المعنوي والأخلاقي والإبداعي**، ويسمى بالثقافة (Culture)[1].

ويمكن الحديث عن نوعين من الدراسات التي تنتمي إلى النقد الحضاري، الدراسات الثقافية (Cultural studies) التي تهتم بكل ما يتعلق بالنشاط الثقافي الإنساني، وهو الأقدم ظهورا، والنقد الثقافي(Cultural criticism) الذي يحلل النصوص والخطابات الأدبية والفنية والجمالية في ضوء معايير ثقافية وسياسية واجتماعية وأخلاقية، يعنى النقد الثقافي بالمؤلف، والسياق، والمقصدية، والقارئ، والناقد. ومن ثم، فالنقد الثقافي نقد إيديولوجي وفكري وعقائدي. وهكذا، فقد رفض المثقفون الأمريكيون القاطنون بمدينة نيويورك منح جائزة بولنجتون في عام ١٩٤٩ م للشاعر عزرا باوند؛ لأنه كان مؤيدا لموسوليني وهتلر في الحرب العالمية الثانية. ويعني هذا أن هؤلاء المثقفين كانوا ينطلقون من مسلمات ثقافية وسياسية وأخلاقية، أكثر من انطلاقهم من مرتكز النص أو الخطاب، وذلك باعتباره علامة ثقافية وسياقية، تحمل مقاصد مباشرة وغير مباشرة، قبل أن يكون علامة جمالية أو فنية أو شكلية[2].

كما يهدف النقد الثقافي إلى كشف العيوب النسقية التي توجد في الثقافة والسلوك، بعيدا عن الخصائص الجمالية والفنية. ويعني هذا أن النقد الثقافي هو:» فعل الكشف عن الأنساق، وتعرية الخطابات المؤسساتية، والتعرف على أساليبها في ترسيخ هيمنتها، وفرض شروطها على الذائقة الحضارية للأمة»[3].

---

(١) عبد الله الغذامي، عبد النبي اصطيف: ضمن سلسلة حوارات لقرن جديد وموضوعها: نقد ثقافي أم نقد أدبي، ط ١، دار الفكر ودمشق ١٤٢٥ه، ٢٠٠٤ ص ١٢٠.

(٢) ينيه ويليك – النقد الأدبي نظرة تاريخة ضمن كتاب (ما هو النقد) ترجمة سلافة حجازي مراجعة عبد الوهاب الوكيل ط ١ دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٩ ص ٣٠٨.

(٣) التاريخ الأدبي ومناهجه، ضمن كتاب نظرية الأدب في القرن العشرين ك. م نيوتن ترجمة عيسى على العاكوب، ط ١ عين

هذا ويرى مجموعة من النقاد الثقافيين كفانسان ليتش (incent B.Leitch)، وعبد الله محمد الغذامي، وغيرهما بأنه آن الآوان للاهتمام بالنقد الثقافي باعتباره بديلا للنقد الأدبي، بعد أن وصل هذا النقد – حسب عبد الله محمد الغذامي- إلى سن اليأس، ووصلت البلاغة العربية بعلومها الثلاثة(البيان، والمعاني، والبديع) إلى مرحلة العجز والموت، حيث يقول الغذامي: «مازلنا ندرس طلابنا في المدارس والجامعات مادة البلاغة بعلومها الثلاثة، ولا نعي أن ما ندرسه لهم هو علم لم يعد يصلح لشيء، فلا هو أداة نقدية صالحة للتوظيف، ولا هو أساس لمعرفة ذوقية أو تبصر جمالي، وإن كانت قديما كذلك إلا أنها لم تعد أساسا لتصور ولا لتذوق»[١].

ومن ذا يحتاج إلى رصد الكنايات والجناسات والطبقات في أي نص، ومن ذا يحتاج إليها لتذوق أي نص أو تعرف صيغه ودلالاته، ونحن في الجامعات ندرس طلابنا وطالباتنا كل ما هو نقيض لهذه البلاغة ومتجاوز لها، ولكننا لا نجرؤ على إلغاء مقررات البلاغة، وقد نظن أن إلغاءها سيكون بمثابة الانتحار المعرفي، أو التآمر ضد التراث، وضد ذائقة الأمة. تتصنم العلوم مثلما يتصنم الأشخاص حتى لتبلغ حد القداسة، وأنا أرى أن النقد الأدبي كما نعهده، وبمدارسه القديمة والحديثة قد بلغ حد النضج، أو سن اليأس حتى لم يعد بقادر على تحقيق متطلبات المتغير المعرفي والثقافي الضخم الذي نشهده الآن عالميا، وعربيا، بما أننا جزء من العالم متأثرون به ومنفعلون بمتغيراته[٢].

ومن ثم، لا يتعامل النقد الثقافي مع النصوص والخطابات الجمالية والفنية على أنها رموز جمالية ومجازات شكلية موحية، بل على أنها أنساق ثقافية مضمرة تعكس مجموعة من السياقات الثقافية التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والقيم الحضارية والإنسانية. ومن هنا، يتعامل النقد الثقافي مع الأدب الجمالي ليس باعتباره نصا، بل بمثابة نسق ثقافي يؤدي وظيفة نسقية ثقافية تضمر أكثر مما تعلن[٣].

زد على ذلك علينا ألا نخلط النقد الثقافي بنقد الثقافة أو الدراسات الثقافية العامة، فالنقد الثقافي هو الذي يتعامل مع النصوص والخطابات الأدبية والجمالية والفنية، فيحاول استكشاف أنساقها الثقافية المضمرة غير الواعية، وينتمي هذا النقد الثقافي إلى ما يسمى بنظرية الأدب على سبيل التدقيق. في حين، تنتمي الدراسات الثقافية إلى الأنتروبولوجيا والإتنولوجيا وعلم الاجتماع والفلسفة والإعلام وغيرها من الحقول

للدراسات والبحوث الإنسانية الاجتماعية – القاهرة ١٩٩٦م، ص ٢٩ .

(١) نقد ثقافي أم أدبي، ص ١٦١.

(٢) عبد الله الغذامي. النقد الثقافي في رؤية جديدة....أعمال المؤتمر الدولي الثاني للنقد الأدبي القاهرة ص ٩ .

(٣) المصدر نفسه، ص١٠.

المعرفية الأخرى. وفي هذا السياق، يقول عبد الله الغذامي: «ونميز هنا بين(نقد الثقافة) و(النقد الثقافي)، حيث تكثر المشاريع البحثية في ثقافتنا العربية، من تلك التي عرضت وتعرض قضايا الفكر والمجتمع والسياسة والثقافة بعامة، وهي مشاريع لها إسهاماتها المهمة والقوية، وهذا كله يأتي تحت مسمى (نقد الثقافة)، كما لابد من التمييز بين الدراسات الثقافية من جهة والنقد الثقافي من جهة ثانية، وهذا تمييز ضروري التبس على كثير من الناس حيث خلطوا بين (نقد الثقافة) وكتابات (الدراسات الثقافية)، وما نحن بصدده من (نقد ثقافي)، ونحن نسعى في مشروعنا إلى تخصيص مصطلح (النقد الثقافي) ليكون مصطلحا قائما على منهجية أدواتية وإجرائية تخصه، أولا، ثم هي تأخذ على عاتقها أسئلة تتعلق بآليات استقبال النص الجمالي، من حيث إنه المضمر النسقي لا يتبدى على سطح اللغة، ولكنه نسق مضمر تمكن مع الزمن من الاختباء، وتمكن من اصطناع الحيل في التخفي، حتى ليخفى على كتاب النصوص من كبار المبدعين والتجديديين، وسيبدو الحداثي رجعيا، بسبب سلطة النسق المضمر عليه»[1].

وعليه فالنقد الثقافي عبارة عن مقاربة متعددة الاختصاصات، تنبني على التاريخ، وتستكشف الأنساق والأنظمة الثقافية، وتجعل النص أو الخطاب وسيلة أو أداة لفهم المكونات الثقافية المضمرة في اللاوعي اللغوي والأدبي والجمالي. أما الدراسات الثقافية، فتهتم بعمليات إنتاج الثقافة وتوزيعها واستهلاكها، وقد توسعت لتشمل دراسة التاريخ، وأدب المهاجرين، والعرق، والكتابة النسائية، والجنس، والعرق، والشذوذ، والدلالة، والإمتاع... وكل ذلك من أجل كشف نظرية الهيمنة وأساليبها.

يرى بعض الباحثين في مجال النقد الأدبي أن النقد الثقافي ليس إلا افتتاناً بمشروع نقدي غربي، إذ يؤكد د. عبد العزيز حمودة أن «هناك مشروعاً نقدياً جديداً يجري الترويج له اليوم في أروقة المثقفين العرب هو النقد الثقافي الذي يمثل افتتاناً جديداً بمشروع نقدي غربي تخطته الأحداث داخل الثقافة أو الثقافات التي أنتجته»[2].

ويعود ظهور أولى ممارسات النقد الثقافي في أوروبا إلى القرن الثامن عشر. لكن تلك المحاولات المبكرة لم تكتسب سمات مميزة ومحددة في المستويين المعرفي والمنهجي إلا مع بداية التسعينات من القرن العشرين وذلك حين دعا الباحث الأمريكي **فنسنت ليتش** إلى «نقد ثقافي ما بعد بنيوي» تكون مهمته الأساسية تمكين النقد المعاصر من الخروج من نفق الشكلانية والنقد الشكلاني الذي حصر الممارسات النقدية داخل إطار الأدب كما تفهمه المؤسسات الأكاديمية «الرسمية»، وبالتالي تمكين النقاد من تناول

(١) نقد ثقافي أم أدبي، ص ١٦٢.

(٢) الخروج من التيه، سلسلة عالم المعرفة، ص٣٥١.

مختلف أوجه الثقافة ولاسيما تلك التي يهملها عادة النقد الأدبي.

أما في اللغة العربية، فيرى سعيد البازعي وميجان الرويلي[١] أن النقد الثقافي، في دلالته العامة، يمكن أن يكون مرادفا «للنقد الحضاري» كما مارسه طه حسين والعقاد وأدونيس ومحمد عابد الجابري وعبد الله العروي. لهذا فهما يعرفان النقد الثقافي على أنه: «نشاط فكري يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعاً لبحثه وتفكيره، ويعبر عن مواقف إزاء تطوراتها وسماتها».

ويمكن اعتبار د.عبد الله الغذّامي أول من حاول تبنّي مفهوم النقد الثقافي في معناه الحديث الذي حدده فنسنت ليتش واستخدم أدواته لاستكشاف عدد من الظواهر الثقافية العربية التي لم تستطع مختلف مدارس النقد الأدبي السابقة التصدي لها.

يعرّف الغذّامي النقد الثقافي بأنه: «فرع من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول الألسنية معنيّ بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، ما هو غير رسمي وغير مؤسساتي وما هو كذلك سواء بسواء. ومن حيث دور كل منها في حساب المستهلك الثقافي الجمعي. وهو لذا معني بكشف لا الجمالي كما شأن النقد الأدبي، وإنما همه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي الجمالي، فكما أن لدينا نظريات في الجماليات فإن المطلوب إيجاد نظريات في القبحيات لا بمعنى عن جماليات القبح، مما هو إعادة صياغة وإعادة تكريس للمعهود البلاغي في تدشين الجمالي وتعزيزه، وإنما المقصود بنظرية القبحيات هو كشف حركة الأنساق وفعلها المضاد للوعي وللحس النقدي»[٢].

بالنسبة لفنسنت ليتش فهو يؤكد، عند تناوله لطبيعة الروابط بين النقد الثقافي والنقد الأدبي أنّ هذين النقدين مختلفان على الرغم من وجود بعض نقاط الالتقاء والاهتمامات المشتركة بينهما. وبعكس بعض المهتمين الآخرين بالنقد الثقافي الذين يرون أن على النقد الثقافي أن يركز على تلك الظواهر التي يهملها النقد الأدبي مثل مظاهر الثقافة الشعبية أو الجماهيرية، ويبتعد عن الميادين الأدبية «المتعالية» كنظرية الأدب، يرفض فنسنت ليتش الفصل بين النقد الأدبي والنقد الثقافي، ويرى أن اختصاصيي الأدب يمكن أن يمارسوا النقد الثقافي دون أن يتخلوا عن اهتماماتهم الأدبية». وعلى الرغم من ذلك فما زال كثير من الباحثين، مثل عبد العزيز حمودة، يرون في النقد الثقافي (مجرد) افتتان فئة من الأساتذة العرب بمنهج نقدي غربي لم يثبت فعاليته حتى داخل الثقافات الغربية التي أفرزته. ومنهم من لا يرى في النقد الثقافي إلا

(١) مصطفى الغلاييني، دليل الناقد الأدبي، دار التراث العربي، لبنان، د.ت، ص ٣٠٥.

(٢) الغذامي، النقد الثقافي، ص ٨٣-٨٤.

إحدى مظاهر العولمة))[١].

نظراً لأنّ عنوان البحث هو «النقد الثقافي» فإنه من المهم الوقوف عند مصطلح «ثقافة» والوقوف عند المراد ب «ثقافتنا» و «الثقافة العربية».

ولعله من المفيد بداءة الوقوف على موقف الدكتور الغذّامي بخصوص تحديد هوية المثقف، مَن هو المثقف، ومن الذي يُحرم من لقب المثقف؟ إذ يقول في ذلك الدكتور الغذّامي: ((إما أن يكون المثقف حداثياً، أو لا يكون مثقفاً!))[٢].

وبما أن النسق هو نسق التأثير لا نسق الإقناع، فإن النفس العربية قد جرى تدجينها لتكون نفساً انفعالية تستجيب لدواعي الوجدان أكثر من استجابتها لدواعي التفكير، وسارت الذات العربية كائناً شعرياً تسكن **للشعر** ولا تتحرك إلا حسب **المعنى الشعري** الذي تطرب له غير عابئة بالحقيقة، وما كانت الحقيقة قط قيمة شعرية، وبالتالي فإنها لن تكون قيمة ثقافية، طالما أن **شعرية الخطاب هي اللب اللغوي والقيمي لثقافتنا**))[٣].

يظهر لك من هذا النقل رؤية الدكتور الغذّامي للمؤثر والمؤسس لثقافة العرب، مع إشارته لمجيء الإسلام، ولكن - من وجهة نظره -لم يكن للإسلام سوى أثرٍ في الجانب المعاشي والقيمي، أما الجانب الثقافي فقد كان شيئاً آخر، فقد كان الشعر وظل هو المهيمن المؤثر فيه.

وتجد الدكتور الغذّامي يقلص من أثر الإسلام مقابل الأثر الثقافي للشعر إلى أضيق الحدود، فيجعله مقصوراً على فترة ضيقة جداً وهي فترة صدر الإسلام - قبل العهد الأموي- فيقول عند حديثه عن أنواع الخطابة: ((الخطابة الوظيفية، وهي الخطب العملية التي صاحبت الدعوة الإسلامية، وكانت فعالة وإنجازية، وهي العلامة الثقافية التي صبغت الفترة الإسلامية الأولى، حيث امتزج القول بالفعل، وتقدم الخطاب الإنجازي، في حين تراجع الخطاب الشعري، وكان الإنجاز حينذاك هو علامة المرحلة، حيث الفتوحات والتحقق التاريخي العظيم. **غير أن هذه فترة استثنائية نادرة، وما جاء بعدها كان عودة للقيم الشعرية في الخطاب**))[٤].

ويقول أيضاً: ((والأمة ذات التاريخ العظيم في فتوحاتها المجيدة، **لم تحقق فتوحات مماثلة في المجال الفكري والعقلي والاجتماعي**، وهو ما كان يُفترض في أمة تحمل المعاني الإسلامية الأولى في الإنسانية والعدل والحرية، وهذه كلها صيغ إسلامية جوهرية، لا تمثلها ولا تتمثلها الشخصية الاجتماعية أو الثقافية العربية))[٥].

---

(١) مسعود عمشوش، «النقد الثقافي والنقد الأدبي» دراسة منشورة، المجلة الثقافية، ع٢٣، ٢٠٠٨، ص٦٥.

(٢) عوض بن محمد القرني، الحداثة في ميزان الإسلام» دار الفرات، لبنان، ٢٠٠٧، (ص ٦٢-٦٣).

(٣) «النقد الثقافي» (ص ١٠٤-١٠٥).

(٤) النقد الثقافي» (ص ١٠٣).

(٥) «النقد الثقافي» (ص ١١٦).

المبحث الثاني

شعر الرصافي في إطار النقد الثقافي

إنَّ مهمة المبدع لن تكون بعيدة المنال في ظل فاعلية إنسانية في مجتمعه تشاركه -وإن بحدود- شيئاً من التطلع إلى أفق الجديد، وتستجلب إمكانات الحركة نحوه في جوانب من وجودها السلوكي والمعرفي. ولكن حين يكون ذلك المبدع في محيط اجتماعي منغلق على ما توارثه وترسخ فيه من قيم وانشغالات تمسي حاجزاً لمواجهة الجديد واتقائه فإن ذلك سيجعل مهمته أكثر صعوبة وتعقيداً، واحتماء بالذات - ذاته - التي ستعايش تناقضات ممضة لوجودها، بين مسعاها لإحداث التغيير والمواضعات القيمية التي تحتكم إليها فاعلية السلوك وحساسية التذوق والاستجابة المجتمعية التي لن تجد أمامها كي تتحقق طماحها فيها إلا أن تدخل في صراع مع تلك القيم، فيثور ذلك المبدع الأصيل عليها ويرفضها، بدءاً من تأصلها المندس في مكونات شخصيته، والمتحكم في تشكيل جوانب من شخصيته، «ومن هنا تبدأ رحلة الصراع في أعماقه محاولاً إعادة تشكيل هذه القيم وبنائها من جديد، وتوصيلها مرة أخرى إلى مجتمعه بالصورة التي يقترحها ويطمئن إليها. وكلما كانت درجة أصالة الفنان وتوتره عالية كانت درجة الصراع عالية... فإذا أضفنا إلى ذلك أن حركة المجتمع دائبة ومستمرة مهما كانت درجتها أمكننا عند ذاك استمرارية التوغل في أعماق الفنان»[1].

إنَّ تقصي مساحة النقد الثقافي ومآلاته لدى الرصافي لما له من حضور طاغٍ ومؤثر في مسار حركية الشعر العراقي ومنذ بواكير نهضته الحديثة وهو معروف عبد الغني الرصافي الذي مثَّل أفقاً خاصاً لتشكيل فاعلية ثقافية مغايرة، لا في حدود التجربة الشعرية في مختلف جوانب الوعي والتبشير بذائقة ثقافية مغايرة، لا تكتفي بالشعر وحده فهي تذهب بذلك إلى جوانب متعددة من الفنون والممارسات ذات النزوع المنتمي إلى قيم الثقافة وفاعليتها المؤثرة.

وقد درس الرصافي ما تلقاه من أوليات معرفية اتجه إلى طلب العلوم الدينية على يد واحد من علماء عصره الذي وجده فيه انشداداً إلى العلوم الدينية وتبتل في تقصيها، وزهد بما حوله من متع وانشغالات آنية،

(١) د. علي عباس علوان. تطور الشعر العربي الحديث في العراق، ص ٩٢.

ذكرته بما كان عليه واحد من متصوفة بغداد المشهورين[١].

كانت تلك مرحلة لم تواصل حضورها وحدها في المراحل اللاحقة عند هذا الشاعر، ولم تستبد نهائياً بوعيه وانشغالاته والتأسيس الذهني الخاص الذي هيأته الأقدار،إذ غادراها إلى حيث يشرع آفاقه المعرفية نحو اتساع من مجالات العلوم والنظر الفكري متعدد المصادر.

كان (الرصافي) قد غادر الدراسات الدينية نحو الاهتمام بالتيارات الفكرية الحديثة في منابعها المختلفة والمتصارعة، ليتأمل كثيراً من أفكارها وظواهرها العلمية في كتاباته وشعره ويسعى إلى تحديد رؤيته منها[٢].

ويردد الرصافي:

يا مياها جرت بدجلة تجتاز مروراً بجانبي ببغداد
إن نفسي إلى الحقيقة عطشى أفتشفين غلة من صاد[٣]

وإذا كان تشخيص الحقيقة ممكناً في بعض الوقائع والمظاهر ذات الوجود المادي المحسوس والمتعين فيها ومن خلالها فإن ما عداها من ظواهر الكون وأفكار الحياة والموت و تقلبات السلوك البشري ودوافعه التي لا تستجيب ليقينية محض هي ما يذهب بالشاعر إلى مغادرة الحقيقة، والانضواء في دوامة (الشك) الذي يبدو في تشكلاته تمثلاً لفلسفة (ديكارت) في البحث عن اليقين من خلال مطارحة الفكرة بما يدور في الذهن من تأملات غير جازمة في نظرها إليها، ليدخل كل منهما في مناط من الشك والتساؤل القلق[٤].

تناول الشعراء العراقيون الذين عاشوا في مطلع القرن العشرين موضوع الانتداب ؛ لأن أكثر العراقيين حسبوا أن الانتداب يردُّ لهم حقوقهم، ويضمن لهم مستقبلهم، ولكن الذي وقع هو العكس من ذلك تماماً غير أنَّ هذه الكذبة التي أطلقها المستعمرون سرعان ما انكشف زيفها، وظهرت أطماع المستعمرين جليَّةً، وباتت وعودُهم الكاذبة واضحةً أمام الشعب، فالتهبت مشاعر الناس، وعواطفهم ويئسوا من الحياة، والمستبدين الذين لا يفكرون بالشعب، وإنما يفكرون بثرواتهم، ومطامعهم الشخصية، ومجتمعنا في ذلك الوقت، ولحد الآن متمسك بالعادات، والتقاليد، وهي لا تسمح له بالخروج عما هو مألوف، وشائع، ومنطقي، وعلى هذا ((ما زال العربي الأصيل في هذا العصر يتسم بشيء من صفات الأجداد، فهو يتسقط أخبار الحاكم، ويحصي عليه سلوكه، وتصرفاته، ويؤاخذه على هفواته، ولا يطيق انحرافه عن جادة الحق))[٥]، فقد ظنّ الإنكليز أن

(١) الرصافي، الديوان،٢:٦٩٦.

(٢) الرصافي، الديوان، ٢:٦٩٧.

(٣) الديوان، ١:٥٥

(٤) خضر الولي، آراء في الشعر، ص ١١.

(٥) الاتجاه القومي في الشعر المعاصر، د. عمر الدقّاق، مكتبة دار الشرق، حلب، ط٢، ١٩٦٣م: ٣٠٩.

العراقيين قد خُدعوا بشعاراتهم البراقة، والتي قالوا فيها أنهم جاءوا محررين، وليسوا غازين، ولكن سرعان ما اتضحت للعيان، وانجلى زيفها، فالاحتلال مهما كان نوعه لا يريد التقدم والازدهار للمجتمع الذي يحتله، وإنما يريد العكس، يريد له التخلف، والجهل ؛ حتى لا يعي الشعبُ، ويطالبُ بحقوقه المشروعة.

حين نظم الرصافي قصيدته (بعد الدستور) في الأستانة يوم سقطت وزارة (كامل باشا)، تيقن الشعب حينما صدر الدستور بأنه سيعيش في نعيم، وترف ؛ لوجود قانون يحكم الجميع، فخاطب الشعب بلهجة الواثق [من الطويل]:

وزفت لنا الدستور أحرار جيشنا ... فأصبح هذا الشعب للسيف شاكراً
فأهلاً بما زفت وشكراً لما زفَّا ... وقد كان قبل اليوم لا يشكر السيفا[1]

وهو كأي شاعر لا يعلم ما تخفيه النوايا، فتعطل الدستور، ولم يُعملْ به، فكان من جراء ذلك أن استاء الناس من الوضع المزري الذي يسوء يوماً بعد يوم، والحكام مشغولون بنهب خيرات البلاد، فما كان من الشعراء – وفي طليعتهم الرصافي- إلا أن يندوا بالسياسة القائمة آنذاك، بأشعارهم التي شكَّلت زاداً معرفياً يوقظ الهمم، ويقدح زند النهوض في مختلف قطاعات المجتمع، فجاءت قصائدهم متميزةً ((بطابعٍ خاص في تناول الأحداث السياسية... فجاءت ألفاظها مليئة بالوعد والتهديد، وزخرت بالألفاظ ذات التعبيرات الغاضبة))[2].

ومن قصائده السياسية التي ناقش فيها بأسلوب قصصي قضية الانتداب هي قصيدته (غادة الانتداب) التي عدَّها بعض الباحثين ((مثلا أعلى للجرأة، وشجاعة القلب حين يصف الحكومة التي أخرجها الانتداب للناس وصفا يبعث على الكثير من التأمل والضحك، وفيها من قوة العبارة، وحسن التصوير، وجمال الخيال، وشدة النقد ما يؤكد خصوصيتها، وجرأتها، وسخريتها))[3]، وفيها يقول [من السريع]:

دعْ مزعجَ اللوم وخلِّ العتابْ ... من قِصَّةٍ واقصةٍ غُصَّةٍ
في (الكرخ) من (بغدادَ) مرَّت بنا ... لُبَّتُها مُوقَرةٌ بالحِلى
ووجهُها يَطمِسُ سحناءَهُ ... واسمعْ إلى الأمرِ العجيب العُجابْ
تُضحِكُ بل تدعو إلى الانتحابْ ... يوماً فتاةٌ من ذوات الحجابْ
وكفُّها مُشْبعةٌ بالخضابْ ... عنا ظلامٌ من سواد النقابْ[4]

(١) م. ن: ٣ / ٢٦.
(٢) د. علي حداد، الخطاب الآخر أبجدية الشاعر ناقداً، دمشق ٢٠٠١م، ص١١٥.
(٣) الوصف في الشعر العراقي من ١٨٠٠- ١٩٢٥م، محمد حسن علي مجيد، (أطروحة دكتوراه)، جامعة بغداد، ١٩٨٥م: ٢٦٢.
(٤) ديوان الرصافي: ٣ / ١٧٥.

فالرُّصافيُّ في قصيدته هذه يحكي قصة فتاة من أهل بغداد، ويصفها بأنها محجَّبةٌ بحجابٍ يُخفي ملامحَ وجهها، هذا في الظاهر، ولكنها في الباطن رمزٌ إلى معنىً آخرَ، أظنُّ أنَّهُ رمزٌ إلى الظلم، والطغيان الذي يلاقيه أبناء الشعب من المحتل الغاصب الذي حرمه من حقوقه كافة، وفي هذه القصيدة نقدٌ لاذعٌ للساسة المتعاونين مع المحتل الذين ليس لهم أي قرار يخالف إرادة المحتل، فكل وزير يسيره مستشار بريطاني يفعل ما يريده، فكانت قصيدة الرصافي تحدياً صارخا للحكومة، فلم يبلغ أحدٌ من الشعراء ما بلغه الرصافي من جرأة ((في مهاجمته لحكومة بلاده بمثل هذه الصورة، وبهذه الطريقة، وهو موظف في الحكومة))[1]، ويستمر الشاعر في سردٍ توصيفي لهذه الفتاة التي أغرت الناس بمظهرها الحسن، وأخفت قباحة نواياه عنهم، فنشعر ونحنُ نقرأ هذه القصيدة ((على عظم ما بها من... بلاء بهذا الانتداب البريطاني المقيت على العراق، فقد ننسى أنفسنا حينما نقرأ أبياته المليئة بالسخرية من هذا الانتداب الذي صوَّره على هيأة [كذا] غادةٍ جميلة تظهر الرحمة، وتبطن العذاب... فنبتسم معه وهو يصور مشية هذه الغادة بأسلوب ساخر))، ولنقرأ بعضاً من أبياتها:

تختلب اللبَّ بأوضاعها ... وكل ما يصدُرُ منها خِلابْ
قد وضعت تاجاً على رأسها ... يلمع في الظاهر لمعَ الشهابْ
يُحسَبُ من دُرٍّ بتمويهه ... وهو إذا حققته من سِخابْ
قد غولط الناسُ بأثوابِها ... في أنها من معمل الإنتخابْ[2]

شغل السجن مساحةً متميزة من مجموع الشعر السياسي، فقد برز بشكلٍ واضحٍ في دواوين الشعراء، وتجلىّ في ما حكوه لنا من وصفٍ دقيق لما كان عليه السجن، وما يحويه من مصائب وويلاتٍ حلَّت بشعبهم ؛ وذلك لأنهم عانوا هذه المشاكل بأنفسهم، فمن الواضح بعد ذلك أن يكون وصفهم بهذه الدقة، والذي يعاني المصيبة بنفسه ليس كالذي يتخيلها.

* * *

(١) معروف الرصافي شاعر العرب الكبير، قاسم الخطاط وجماعته، (د.م)،(د.ط)،(د.ت): ١٣٣
(٢) ديوان الرصافي: ٣ / ١٧٦.

الخاتمة

١. إنَّ الدراسات التي تناولت شاعرنا الرصافي سواء في حياته أم بعدها إلى العقدين الأخيرين من القرن المنصرم، يجد أن أكثرها تصب في بوتقة المناهج السياقية، فقد جرت محاولات للإفادة من المناهج السياقية، اجتماعية، وتاريخية، ونفسية، وأسطورية في قراءة النص، أسوة بالنقد العربي الحديث، الذي كان في قسم كبير منه يستلهم معطيات النقد السياقي أو جزءاً منها، لكن غاب عن تلك الدراسات المنهج الثقافي.

٢. إنَّ قسما كبيرا من شعر الرصافي كان تعبيرا عن هذا الواقع، وما يمور به من أحداث وتقلبات سياسية واجتماعية واقتصادية، فكان شعره مثالا حيّاً لواقع المجتمع العربي آنذاك.

٣. يجمع الباحثون على أن النقد الثقافي ليس منهجًا بين مناهج نقدية أخرى، أو مذهبًا مستقلا بذاته، ولكنَّه فرع أو مجال متخصص في نوع معين من الدراسات من بين فروع المعرفة ومجالاتها التي تدرس كل ما تنتجه الثقافة من نصوص ومعطيات سواء كانت مادية أو فكرية.

٤. يقصد بالنص كل ممارسة حصلت أو يمكن أن تحصل، سواء أكانت قولا أو فعلا، حسيًا أو معنويًا، مدركًا أو غامضًا، ظاهرًا أو مضمرًا، يمكن أن يولد معنى بذاته أو بعلاقاته أو بإحالاته أو تنتج عنه دلالة.

٥. إنّ الرصافي بحكم ثقافته التراثية ومعاينته الدائمة للشعر القديم بمختلف عصوره كان مهيئا لان يترك هذا التراث الرائع أثراً واضحًا من شعره، فقد هيّأ لنسيجه الشعري القدرة على الحياة وتوليد دلالات تخاطب أجيالا مختلفة.

٦. إنَّ تحديد إطار ثقافة الشاعر بشكل تام، يبدو ضربا مستحيلا، ذلك أننا لا نستطيع، أن نحدد نوعية الثقافة التي تعاطاها الشاعر بصورة مؤكدة، فرسائل الرصافيّ – مثلاً – لا تكفي لتحديد أطره الثقافية، لذلك وقع بعض النقاد في خطأ كبير عندما حصر ثقافته بعدد محدد من الكتب والإصدارات التي تناولتها المطابع آنذاك.

٧. أفاد الرصافيّ من كل ما هو متاح من ثقافة ذاتية وتراثية وأجنبية، ليكتب نصا مبدعا، احتل مكانة متميزة في الشعرية العربية المعاصرة، إذ مهد السبيل لشعر عربي حديث ومعبر عن الحياة بكل تشظياتها شكلا أو مضمونا.

٨. يرفع النقد الثقافي الحواجز بين التخصصات والمستويات في الممارسات الإنسانية، وكأنّه يعمل على مهاد متسع من منجزات العلوم الاجتماعية والإنسانية والعولمة وما بعد الحداثة وتطوراتها المتلاحقة.

٩. يمثل النقد الثقافي المرحلة الراهنة للاشتغال بالفلسفة بعمقها المعرفي. ويستفيد من تلك المجموعة الكبيرة من منجزات الحقول المعرفية الأخرى، لأنها تنتمي جميعها إلى الثقافة التي هي مجمل صنيع الإنسان في البيئة الطبيعية.

١٠. درس الرصافي ما تلقّاه من أوليات معرفية اتجه إلى طلب العلوم الدينية على يد واحد من علماء عصره الذي وجده فيه انشداداً إلى العلوم الدينية وتبتل في تقصيها، وزهد بما حوله من متع وانشغالات آنية، ذكرته بما كان عليه واحد من متصوفة بغداد المشهورين.

* * *

المصادر والمراجع

١- إبراهيم عبد الغني الدروبي، البغداديون أخبارهم ومجالسهم، مطبعة الرابطة - بغداد ١٩٥٨م.
٢- عبد الله الغذامي. النقد الثقافي في رؤية جديدة، أعمال المؤتمر الدولي الثاني للنقد الأدبي القاهرة.
٣- عبد الله الغذامي، عبد النبي اصطيف: ضمن سلسلة حوارات لقرن جديد وموضوعها: نقد ثقافي أم نقد أدبي، ط ١، دار الفكر ودمشق ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤.
٤- الرصافي رائد الشعر الحديث، عبد الجبار داود البصري، - وزارة الثقافة والإرشاد العراقية- بغداد - ١٩٦٦.
٥- أحمد نصيف الجزائري، في الرؤية الشعرية المعاصرة، منشورات وزارة الأعلام، بغداد، دون تاريخ.
٦- السماح عبد الله - مختارات من شعر الرصافي - مكتبة الأسرة - القاهرة، ٢٠٠٥.
٧- عبد الله الغذامي، عبد النبي اصطيف: ضمن سلسلة حوارات لقرن جديد وموضوعها: نقد ثقافي أم نقد أدبي، ط ١، دار الفكر ودمشق ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤.
٨- ينيه ويليك - النقد الأدبي نظرة تاريخة ضمن كتاب (ما هو النقد) ترجمة سلافة حجازي مراجعة عبد الوهاب الوكيل ط ١ دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٩.
٩- التاريخ الأدبي ومناهجه، ضمن كتاب نظرية الأدب في القرن العشرين ك. م نيوتن ترجمة عيسى على العلكوب، ط ١ عين للدراسات والبحوث الإنسانية الاجتماعية - القاهرة ١٩٩٦م.
١٠- د. علي حداد، الخطاب الآخر أبجدية الشاعر ناقداً، دمشق ٢٠٠١م.
١١- د. علي عباس علوان. تطور الشعر العربي الحديث في العراق.
١٢- د. عمر الدقّاق، الإتجاه القومي في الشعر المعاصر، مكتبة دار الشرق، حلب، ط٢، ١٩٦٣م.
١٣- محمد حسن علي مجيد، الوصف في الشعر العراقي من ١٨٠٠- ١٩٢٥م، (أطروحة دكتوراه)، جامعة بغداد، ١٩٨٥م.
١٤- قاسم الخطاط وجماعته، معروف الرصافي شاعر العرب الكبير، (د.م)، (د.ط)، (د.ت).
١٥- محمد أمين زكي، مشاهير الكرد وكردستان، بغداد، مطبعة التفيض الأهلية ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م.
١٦- محمد الجزائري ويكون التجاوز، منشورات وزارة الأعلام- بغداد- مطبعة الشعب ١٩٧٤.

* * *